مشكاة الأنوار

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله مفيض الأنوار، وفاتح الأبصار، وكاشف الأسرار، ورافع الأستار، والصلاة على محمد نور الأنوار، وسيد الأبرار، وحبيب الجبار، وبشير الغفار، ونذير القهار، وقامع الكافر، وفاضح الفجار، وعلى آله وأصحابه الطاهرين الأخيار.

أما بعد، فقد سألتني أيها الأخ الكريم قيضك الله لطلب السعادة الكبرى، ورشحك للعروج إلى الذروة العليا، وكحل بنور الحقيقة بصيرتك، ونفى عما سوى الحق سريرتك أن أبث إليك أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. ومعنى تشبيهه ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة مع قوله ﷺ: «إنَّ لله سبعينَ ألفَ حجابٍ منْ نُور وظُلْمَة لَوْ كَشفَهَا لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهه كُلَّ مَنْ أدْرَكَهُ بصرُهُ»، ولقد ارتقيتَ بسؤالكَ مرتقىً صعبًا تنخفض دون أعاليه مرامي أعين الناظرين، وقرعت بابًا مغلقًا لا يفتح إلا للعلماء الراسخين، ثم ليس كل سر يكشف ويفشى، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى بل صدور الأحرار قبور الأسرار، ولقد قال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر، بل قال سيد الأولين والآخرين: «إنَّ منَ العلمِ كهيئة المكْنُون لا يعْلَمُهُ إلاّ العُلَمَاءُ بالله فإذا نطَقُوا به

لَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِمْ إلاّ أَهْلُ الاغْتِرَارِ بالله»، ومهما كثـر أهل الاغترار بالله وجب حفظ الأسرار عن وجه الأشرار، لكنى أراك منشرح الصدر بالنـور منزه السر عن ظلمات الغرور فلا أشح عليك بالإشارة إلى لوامع ولوائـح والرمز إلى حقائق ودقـائق. فليس الظالم فى كف العلم عن أهله بأقل منه بثه إلى غير أهله فقد قيل:

فَـــمَنْ مَنَحَ الجُـــهَّـــالَ علْمًـــا أَضَـــاعَـــهُ
وَمَنْ مَنَعَ المُسْـــتَـــوْجِـــبِـــينَ فَـــقَـــدْ ظَلَمْ

فاقنع بإشارات مـختصرة، وتلويحـات موجزة فإن تحقـيق القول فيه يستـدعى تمهيد أصول،وشرح فصول ليس يتسع له الآن وقـتى ولا يتصرف إليه ذهنى ولا همتي، ومفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما شاء، وإنما ينفتح فى هذا الوقت فصول ثلاثة:

الفصل الأول
فى بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له

وبيـانه بأن تعـرف معنى الـنور بالوضع الأول عند العـوام، ثم بالوضع الثـانى عند الخواص، ثم بالوضع الـثالث عند خواص الخـواص، ثم تعرف درجات النـور المنسوبة إلى الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى، وعند انكشاف حقـائقها أنه النور الحق الحقـيقى وحده لا شريك له فـيه. أما الوضع الأول العامى فالنور يشيـر إلى الظهور والظهور أمر إضافى إذ يظهر الشئ لا مـحالة لغيره ويبطن عن غيره فـيكون ظاهرًا بالإضافة باطنًا بالإضافـة وإضافة ظهوره إلى الإدراكـات لامحالة. وأقوى الإدراكات وأجلهـا عند العوام الحواس ومنها حـاسة البصر،والأشيـاء بالإضافة إلى الحس البصرى ثلاثة أقسام: منها ما لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة، ومنها ما يبصر بنفسه ولا يبصر به غيره كالأجسام المضيئة مثل الكواكب وجسم النار إذا لم تكن مشعلة، ومنها ما يبصر به غيره كالشمس والقمر والنيران المشعلة والسرج، والنور اسم لهذا القسم الثالث، ثم تارة يطلق على مـا يفيض من هذه الأجسـام المنيرة على ظواهر الأجـسام الكثيـفة فيـقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الأرض، ونور السـراج على الحائط والثوب،وتارة يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقـة أيضًا لأنها فى أنفسها مسـتنيرة. وعلى الجملة فالنور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس. هذا حده وحقيقته بالوضع الأول.

دقيقة: لما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك وكان الإدراك موقوفًا على وجود

النور وعلى وجود العين الباصرة أيضًا إذ النور هو الظاهر المظهر وليس شيء من الأنوار ظاهرًا فى حق العميان ولا مظهرًا، فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهر فى كونه ركنًا لابدّ منه للإدراك ثم ترجح عليه فى أن الروح الباصرة هى المدركة وبها الإدراك، وأما النور فليس بمدرك ولا به إدراك بل عنده الإدراك، وكأن اسم النور بالنور أحق منه بالنور المبصر، فأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا فى الخفاش إن نور عينه ضعيف، وفى الأعمش إنه ضعيف نور البصر، وفى الأعمى أنه فقد نور بصره، وفى السواد إنه يجمع نور البصر ويقويه والأجفان إنما خصتها الحكمة الإلهيه بلون السواد وجعل العين مجفونة بها لتجمع ضوء العين. وأما البياض فيفرق نور العين فيضعف نوره حتى إن إدامة النظر إلى البياض المشرق بل إلى نور الشمس يبهر نور العين ويمحقه كما يمحق الضعيف فى جنب القوى، فقد عرفت بهذا أن الروح الباصرة يسمى نورًا وأنه لم يكن بهذا الاسم أولى وهذا هو الوضع الثانى وهو وضع الخواص.

حقيقة: اعلم أن نور البصر موسوم بأنواع من النقصان فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ولا يبصر ما بعد منه ولا ما قرب ولايبصر ما هو وراء حجاب، ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له ويغلط كثيرًا فى إبصاره فيرى الكبير صغيرًا ويرى البعيد قريبًا والساكن متحركًا والمتحرك ساكنًا، فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة فإن كان فى الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها، فليت شعرى هل هو أولى باسم النور فاعلم أن فى قلب الإنسان عينًا هذه صفة كمالها وهى التى يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة النفس الإنسانى، دع عنك هذه العبارات، فإنها إذا كثرت أوهمت عند الضعيف البصيرة كثرة المعانى فنعنى به المعنى الذى يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون ولنسمه عقلاً متابعة للجمهور فى الاصطلاح فنقول العقل أولى بأن يسمى نورًا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع.

أما الأولى: فهو أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه ويدرك صفات نفسه إذ يدرك نفسه عالمًا وقادرًا، ويدرك علم نفسه، ويدرك علمه بعلمه بنفسه وعلمه بعلمه بعلمه نفسه إلى غير نهاية، وهذه خاصة لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام ووراءه سر يطول شرحه.

الثانية: أن العين لا تبصر ما قرب منها قربًا مفرطًا ولا ما بعد والعقل عنده يسوى بين القريب والبعيد ويعرج فى طرفه إلى أعلى السموات رقيًا، وينزل فى لحظة إلى تخوم الأرض هويًا، بل إذا حقت الحقائق انكشف أنه منزه عن أن يحوم بجنبات قدسه القرب

و لبعد الذى يعرض بين الأجسام، فإنه أنموذج من بحور الله تعالى ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة وإن كان لا يرقى إلى ذروة المساوقة، وهذا ربما هزك للتفطن لسر قوله ﷺ: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ عَلَى صُورَته»، فلست أرى الآن الخوض فى بيانه.

الثالثة: أن العَين لا تدرك ما وراء الحجاب، والعقل يتصرف فى العرش والكرسى وما وراء حجب السماوات وفى الملأ الأعلى والملكوت كتصرفه فى عالمه الخاص به ومملكته القريبة. أعنى بها الخاصة به، بل الحقائق كلها لا تحجب عن العقل، وإنما حجاب العقل حيث يحجب من نفسه لنفسه بسبب صفات مقارنة له تضاهى حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان وستعرف هذا فى الفصل الثالث من الكتاب.

الرابعة: أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوالبها وصورها دون حقائقها، والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها، ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها، وأنها مم حدثت وكيف خلقت ومن كم معنى جمع الشئ وركب وعلى أى مرتبة فى الوجود نزل وما نسبته إلى سائر مخلوقاته؟ إلى مباحث أُخر يطول شرحها نرى الإيجاز فيها أولى.

الخامسة: أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات ولا تدرك الأصوات ولا الروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة. أعنى قوة السمع والشم والذوق، بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد، فهو ضيق المجال مختصر المجرى لا تسعه مجاوزة عالم الألوان والأشكال وهما أخس الموجودات، فإن الأجسام فى نفسها أخسّ أقسام الموجودات والألوان. والأشكال من أخس أعراضها، والموجودات كلها مجال العقل إذ يدرك هذه الموجودات التى عددناها وما لم نعده وهو الأكثر فيتصرف فى جميعها ويحكم عليها حكمًا يقينًا صادقًا، فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة والمعانى الخفية عنده جلية، فمن أين للعين الباصرة مساواته فى استحقاق اسم النور. كلا بها نور بالإضافة إلى غيرها ولكنها ظلمة بالإضافة إليه، بل هى جاسوس من جواسيسه وكلها بأخس خزائنه وهى خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضى فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ، والحواس جواسيسه سواها وهى من خيال ووهم وفكر وذكر وحفظ ووراءهم خدم وجنود مسخرة له فى عالمه الحاضر يسخرهم ويتصرف فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد، وشرح ذلك يطول، وقد شرحناه فى كتاب عجائب القلب من كتب الإحياء.

السادسة: أن العين لا تبصر ما لا نهاية له فإنها تبصر صفات الأجسام المعلومات. والأجسام لا تتصور إلا متناهية والعقل يدرك المعقولات والمعقولات لا تتصور أن تكون

متناهية، نعم إذا لاحظ العلوم المتحصلة فلا يكون الحاضر الحاصل عنده إلا متناهيًا لكن فى قوته إدراك ما لا نهاية له. وشرح ذلك يطول فإن أردت له مثالاً فخذ من الحساب فإنه يدرك الأعداد ولا نهاية لها نهاية ويدرك تضعيفات الاثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية ويدرك أنواعًا من النسب بين الأعداد ولا يتصور لها نهاية، بل يدرك علمه بالشئ وعلمه بعلمه بالشئ وعلمه بعلمه بعلمه، وقوته فى هذا الوجه أيضًا لا تقف عند نهاية.

السابعة: أن العين تدرك الكبير صغيرًا فترى الشمس فى مقدار بحر والكواكب فى صور دنانير منشورة على بساط أزرق والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة، ويرى الكواكب ساكنة بل يرى الظل بين يديه ساكنًا، ويرى الصبى ساكنًا فى مقداره. والعقل يدرك أن الصبى يتحرك فى النمو والتزايد على الدوام والظل متحركًا دائمًا والكواكب تتحرك فى كل لحظة أميالاً كثيرة كما قال ﷺ لجبريل: «**أَزَالَت الشَّمْسُ؟**» فقالَ: «**لا. نَعَمْ**» قال: «**وكَيْفَ؟**» قالَ: «**مُنْذُ قُلْتُ لا إلَى أنْ قُلْتُ نَعَم قَدْ تَحَرَّكَتْ مَسِيرَةَ خَمْسمَائَة عَامٍ**». وأنواع غلط البصر كثيرة والعقل منزه عنها، فإن قلت: نرى العقلاء يغلطون فى نظرهم فاعلم أن خيالاتهم وأوهامهم قد تحكم باعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل فالغلط منسوب إليها. وقد شرحنا مجامعها فى كتاب معيار العلم وكتاب محك النظر، فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هى عليه وفى تجرده عسر، وإنما يكمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت وعند ذلك ينكشف الغطاء وتنجلى الأسرار ويصادف كل أحد ما قدمه من خير أوشر محضرًا ويشاهد كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعندها يقال له: فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وإنما الغطاء غطاء الخيال والوهم، وعندها يقول المغرور بأوهامه واعتقاداته الفاسدة وخيالاته الباطلة: ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون، فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى بل الحق أنه يستحق الاسم دونه.

دقيقة: اعلم أن العقول وإن كانت مبصرة فليست المبصرات عندها كلها على مرتبة واحدة، بل بعضها تكون عندها كأنها حاضرة كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشئ الواحد لا يكون قديمًا حديثًا ولا يكون موجودًا معدومًا، والقول الواحد لا يكون صدقًا وكذبًا وأن الحكم إذا ثبت للشئ جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودًا كان الأعم واجب الوجود، فإذا وجد السواد فقد وجد اللون، وإذا وجد الإنسان فقد وجد الحيوان، وأما عكسه فلا يلزم فى العقل إذ لا يلزم من الوجود اللون وجود السواد، ولا من وجود

الحيوان وجود الإنسان إلى غير ذلك من القضايا الضرورية فى الواجبات والجائزات والمستحيلات، ومنها ما لا يقارن العقل فى كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه ويستورى زناده وينبه عليه بالتنبيه كالنظريات، وإنما ينبهه كلام الحكماء. فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى: (ومن جملة كلامه القرآن خاصة فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار فبالحرى أن يسمى القرآن نورًا كما يسمى نور الشمس نورًا فمثال القرآن نورالشمس، ومثال العقل نور العين)، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

تكملة لهذه الحقيقة: فإذا فهمت من هذا أن العين عينان ظاهرة وباطنة من عالم الحس والمشاهدة، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الإبصار. إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة. والظاهرة من عالم الشهادة وهى الشمس المحسوسة، والباطنة من عالم الملكوت وهو القرآن وكتب الله المنزلة، مهما انكشف لك هذا انكشافًا تامًا فقد انفتح لك باب من أبواب الملكوت وفى هذا العلم عجائب يستحقر بالإضافة إليها عالم الشهادة، ومن يسافر إلى هذا العلم وقعد به القصور فى حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة يعد ومحروم عن خاصية الإنسانية بل أضل من البهيمة إذ لم تعطَ البهيمة أجنحة الطيران إلى هذا العلم، ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

واعلم أن عالم الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلى اللب وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح، وكالظلمة بالإضافة إلى النور وكالسفل بالإضافة إلى العلو، ولذلك يسمى عالم الملكوت العالم العلوى والعالم الروحانى والعالم النورانى، وفى مقابلته العالم السفلى والجسمانى والظلمانى. ولا تظنن أنا نعنى بالعالم العلوى السماوات فإنها علو وفوق فى حق بعض عالم الشهادة والحس يشارك إدراكها البهائم، وأما العبد فلا تفتح له أبواب الملكوت ولا يصير ملكوتيًّا إلا وتبدل فى حقه الأرض غير الأرض والسماوات، ولا يصير كل ما هو داخل تحت الحس والخيال أرضه ومن جملتها السماوات، وكل ما ارتفع عن الحس سماؤه. وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ سفره لقرب حضرة الربوبية. فالإنسان مردود إلى أسفل سافلين ومنه يترقى إلى العالم الأعلى، وأما الملائكة فإنهم من جملة عالم الملكوت عاكفون فى حضرة القدس، ومنها يشرفون على العالم الأسفل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله خَلَقَ الخَلْقَ فِى ظُلْمَة ثُمَّ أَفَاضَ عَلَيْهِمْ

منْ نُوره». وقال: «لله مَلائكَةٌ هُمْ أَعْلَمُ بِأَعْمَال النَّاس منْهُمْ». والأنبياء إذا بلغ معراجهم إلى عالَم الملكوت فقد بلغوا المبلغ الأقصى وأشرفوا على جملة من عالم الغيب، إذ من كان فى عالم الملكوت كان عند الله وعنده مفاتيح الغيب أى من عنده تنزل أسباب الموجودات فى عالم الشهادة، إذ عالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم يجرى منه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص ومجرى الثمر بالإضافة إلى المثمر، والمسبب بالإضافة إلى السبب، ومفاتيح معرفة المسببات إنما تؤثر من الأسباب، ولذلك كان عالم الشهادة مثالاً لعالم الملكوت كما سيأتى فى بيان المشكاة والمصباح والشجرة لأن المشبه لايخلو من موازاة المشبه به، ومحاكاته نوعًا من المحاكاة على قرب أو بعد وهذا الآن له غور عميق. ومن اطلع على كنه حقيقته انكشف له حقائق أمثلة القرآن على يسر.

دقيقة ترجع إلى حقيقة النور: قلنا: إن كل ما يبصر نفسه وغيره أولى باسم النور، فإن كان من جملته ما يبصر به غيره أيضًا من أنه يبصر نفسه وغيره فهو أولى باسم النور من الذى لا يؤثر فى غيره أصلاً، بل بالحرى أن يسمى سراجًا منيرًا لفيضان أنواره على غيره، وهذه الخاصة توجد للروح القدسى النبوى إذ تفيض بواسطته أنوار المعارف على الخلق وبه يفهم تسمية الله محمدًا ﷺ سراجًا منيرًا، والأنبياء كلهم سرج، وكذلك العلماء ولكن التفاوت بينهم لا يحصى.

دقيقة: إذا كان اللائق بالذى يستفاد منه نور الإبصار أن يسمى سراجًا منيرًا فالذى يقتبس منه السراج فى نفسه جدير بأن يكنى عنه بالنار، وهذه السرج الأرضية إنما تقتبس فى أصلها من أنوار علوية والروح القدسى النبوى يكاد زيته يضئ ولو لم تمسسه نار إنما يصير نورًا على نور إذا مسته النار، فبالحرى أن يكون مقتبس الأرواح الأرضية من الأرواح الإلهية العلوية التى وصفها على وابن عباس عليهما السلام فقالا: إن لله ملكًا له سبعون ألف وجه فى كل وجه سبعون ألف فم فى كل فم سبعون ألف لسان يسبح الله بجميعها، وهو الذى قوبل بالملائكة كلهم فقيل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]. فهى إذا اعتبرت من حيث يقتبس منها السرج الأرضية لم يكن لها مثال إلا النار، وذلك لايؤنس إلا من جانب الطور.

دقيقة: الأنوار السماوية التى منها تقتبس الأنوار الأرضية إن كان لها أن تترتب بحيث يقتبس بعضها من بعض، فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة. ومثال ترتيبها فى عالم الشهادة لا يدركه الإنسان إلا بأن يبصر ضوء القمر داخلاً فى كوة بيت واقعًا على مرآة منصوبة على حائط منعطفًا منها على حائط آخر فى مقابلتها، ثم منعطفًا منها على الأرض بحيث تستنير منه الأرض، فأنت تعلم أن ما على الأرض من

النور تابع لما على الحائط، وما على الحائط تابع لما على المرآة، وما على المرآة تابع للقمر، وما فى القمر تابع لما فى الشمس إذ منها يشرق النور على القمر. وهذه الأنوار الأربعة مترتبة بعضها أعلى من بعض وأكمل من بعض، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعداها، فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك، وأن المقرب هو الأقرب تقرب إلى النور الأقصى فلا يبعد أن تكون رتبة إسرافيل فوق رتبة جبريل وأن الأقرب الذى تقرب درجته من حضرة الربوبية التى هى منبع الأنوار كلها وأن فيهم الأدنى وبينهم درجات تستعصى عن الإحصاء، وإنما المعلوم كثرتهم وترقيهم فى صفوفهم وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا: ﴿ **وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** ﴾ [الصافات: ١٦٤- ١٦٦].

دقيقة: إذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب، فاعلم أنها لا تتسلسل إلى غير نهاية، بل ترتقى إلى منبع أول وهو النور لذاته وبذاته ليس يأتيه نور من غيره ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها. فانظر الآن هل اسم النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره أو بالمنير فى ذاته المنور لكل ما سواه؟ فما عندى أنه يخفى عليك الحق فيه وبه تتحقق أن اسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذى لا نور فوقه ومنه ينزل النور إلى غيره.

حقيقة: بل أقول ولا أبالى أن اسم النور الأولى مجاز محض، إذ كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته فهو فى ذاته من حيث ذاته لا نور له بل نوره مستعار من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها بل بغيرها. ونسبة المستعار مجاز محض أفترى أن من استعار ثيابًا وفرسًا ومركبًا وركبه فى الوقت الذى أركبه المعير، وعلى الحد الذى رسمه له غنى بالحقيقة أو بالمجاز أو أن المعير هو الغنى كلا بل المستعير هو فقير فى نفسه كما كان، وإنما الغنى هو المعير الذى منه الإعارة والإعطاء وإليه الاسترداد والانتزاع، فإذًا النور الحق هو الذى بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولاً، والإدامة ثانيًا فلا شركة لأحد معه فى حقيقة هذا الاسم ولا فى استحقاقه إلا من حيث تسميته به، ويتفضل عليه بتسميته إياه تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالاً ثم سماه مالكًا، وإذا انكشف للعبد هذه الحقيقة علم أنه وماله ملك لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلاً.

حقيقة: مهما عرفت أن النور راجع إلى الظهور والإظهار ومراتبه، فاعلم أنه لا ظلمة أشد من ظلمة العدم لأنه مظلم، وسمى مظلمًا لأنه ليس يظهر للأبصار إذ ليس يصير موجودًا للبصر مع أنه موجود فى نفسه فالذى ليس موجودًا لغيره ولا لنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية فى الظلمة وفى مقابلته الوجود فهو النور، فإن الشئ ما لم يظهر فى ذاته لا يظهر لغيره، والوجود بنفسه أيضًا ينقسم إلى ما له الوجود من ذاته وإلى ما له

الوجود من غيره. وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه، بل إذا نسبته إلى غيره وليس ذلك بوجود حقيقى كما عرفت فى مثال استعارة الثوب والغنى، فالموجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى.

حقيقة الحقائق: من ههنا يترقى العارفون من حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس فى الوجود إلا الله وأن كل شىء هالك إلا وجهه، لأنه يصير هالكًا فى وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلاً وأبدًا إذ لا يتصور إلا كذلك، فإن كل شىء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول الحق رئى موجودًا لا فى ذاته بل من الوجه الذى يلى موجده فيكون الموجود وجه الله فقط. ولكل شىء وجهان: وجه إلى نفسه، ووجه إلى ربه. فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه الله وجود، فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه، فإذًا كل شىء هالك إلا وجهه أزلاً وأبدًا. ولم يفتقر هؤلاء إلى قيام القيامة ليستمعوا نداء البارى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدًا، ولم يفهموا معنى قوله «الله أكبر» أنه أكبر من غيره. حاشى لله إذ ليس فى الوجود معه غيره حتى يكون هو أكبر منه، بل ليس لغيره رتبة المعية بل رتبة التبعية، بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذى يليه فالموجود وجهه فقط، ومحال أن يكون أكبر من وجهه بل معناه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه نبيًّا كان أو ملكًا، بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا هو إذ كل معروف داخل تحت سلطان العارف واستيلائه وذلك ينافى الجلال والكبرياء. وهذا له تحقق ذكرناه فى كتاب: «المقصد الأسنى فى معانى أسماء الله الحسنى».

إشارة: العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق، لكن منهم من كان له هذه الحالة عرفانًا علميًّا ومنهم من صار له ذوقًا وحالاً وانتفت عنهم الكثرة بالكلية، واستغرقوا بالفردانية المحضة، واستهوت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضًا، فلم يبق عندهم إلا الله فسكروا سكرًا وقع دونه سلطان عقولهم، فقال بعضهم: أنا الحق. وقال الآخر: سبحانى ما أعظم شأنى. وقال الآخر: ما فى الجنة إلا الله، وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق فى حال فرض العشق:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا
نَحن رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدنَا

فلا يبعد أن يفجأ الإنسان مرآة فينظر فيها، ولم يرَ المرآة قط، فيظن أن الصور التى رآها فى المرآة فى صورة المرآة متحدة بها، ويرى الخمر فى الزجاج فيظن أن الخمرة لون الزجاج فإذا صار ذلك عنده مألوفًا ورسخ فيه قدمه استغرقه فقال:

رَقَّ الزُّجاجُ ورَاقَت الخمرُ
وتَشَابَها فتَشَاكَلَ الأمرُ
فكأنَّمَا خمرٌ ولا قدح
وكَأنَّمَا قدح ولا خمرُ

وفرق بين أن يقال الخمر قدح وبين أن يقال كأنه قدح، وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحال فناء، بل فناء الفناء لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه، فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحال ولا بعد شعوره بنفسه، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه، وتسمى هذه الحال بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز اتحادًا، وبلسان الحقيقة توحيدًا، ووراء هذه الحقائق أيضًا أسرار لا يجوز الخوض فيها.

خاتمة: لعلك تشتهى أن تعرف وجه إضافة نور إلى السماوات والأرض، بل وجه كونه فى ذاته نور السماوات والأرض، ولا ينبغى أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار وأنه النور الكلى، لأن النور عبارة عما تنكشف به الأشياء وأعلى منه ما ينكشف به وله وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه وأن الحقيقى منه ما ينكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباس واستمداده بل ذلك له فى ذاته من ذاته لا من غيره، ثم عرفت أن هذا لا يتصور ولن يتصف به إلا النور الأول، ثم عرفت أن السماوات والأرض مشحونة نورًا من طبيعة النور. أعنى المنسوب إلى البصر والبصيرة أى إلى الحس والعقل.

أما البصرى فما تشاهده فى السماوات من الكواكب والشمس والقمر وما تشاهده فى الأرض من الأشعة المنبسطة على كل ما فى الأرض حتى ظهرت به الألوان المختلفة خصوصًا فى الربيع، وعلى كل حال من الحيوانات والنباتات والمعادن وأصناف الموجودات ولولاها لم يكن للألوان ظهور بل وجود، ثم سائر ما يظهر للحس من الأشكال والمقادير يدرك تبعًا للألوان ولا يتصور إدراكها إلا بواسطتها.

أما الأنوار العقليه المعنوية فالعالم الأعلى مشحون بها وهى جواهر الملائكة، والعالم الأسفل مشحون بها وهى الحياة الحيوانية ثم الإنسانية وبالنور الإنسانى السفلى ظهر نظام العالم السفلى كما أن بالنور الملكى ظهر نظام العالم العلوى وهو المعنىّ بقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. وقال: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾

[النور: ٥٥]. وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج، وأن السراج هو النور النبوى القدسى، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النار. وأن العلويات بعضها مقتبس من بعض، وأن ترتيبها ترتيب مقامات، ثم ترتقى جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول، وأن ذلك وهو الله وحده لاشريك له، وأن سائر الأنوار مستعارة منه، وإنما الحقيقى نوره فقط وإن الكل من نوره بل هو لا هوية لغيره إلا بالمجاز، فإذًا لا نور إلا هو وسائر الأنوار أنوار من الوجه الذى تليه لا من ذاتها فوجه كل موجه إليه ومولّ شطره ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. فإذًا لا إله إلا هو فإن الإله عبارة عما الوجوه مولية نحوه بالعبادة والتأليه، أعنى وجوه القلوب فإنها الأنوار والأرواح، بل كما أنه لا إله إلا هو فلا هو إلا هو فإن هو عبارة عما إليه الإشارة، وكيفما كان فلا إشارة إلا إليه بل كلما أشرت فهو بالحقيقة الإشارة إليه، وإن كنت لا تعرفه أنت لغفلتك عن حقيقة الحقائق التى ذكرناها، ولا إشارة إلى نور الشمس بل إلى الشمس، فكل ما فى الوجود فنسبته إليه فى ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس، فإذًا لا إله إلا الله توحيد العوام ولا هو إلاهو توحيد الخواص، لأن ذلك أعم وهذا أخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه فى الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة، ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية فليس وراء ذلك مرقاة إذ الرقى لا يتصور إلا بكثرة، فإنه نوع إضافة يستدعى ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء، وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافة وطاحت الإشارة فلم يبق علو ولا سفل ولا نازل ولا مرتفع، فاستحال الترقى واستحال العروج فليس وراء الأعلى علو ولا مع الوحدة كثرة ولا مع انتقاء الكثرة عروج، فإن كان ثمة تغيير من حال فبالنزول إلى السماء الدنيا. أعنى بالإشراق من علو إلى أسفل لأن الأعلى وإن لم يكن له أعلى فله أسفل.

فهذا غاية الغايات ومنتهى الطلبات يعلمه من يعلمه وينكره من يجهله، وهو من العلم الذى هو كنهه المكنون الذى لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ولا يبعد أن قال العلماء إن النزول إلى السماء الدنيا هو نزول ملك، فقد توهم بعض العارفين ما هو أبعد منه إذ قال هذا المستغرق بالفردانية له نزول إلى سماء الدنيا وإن ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**صرت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به**». وإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه فهو السامع والباصر والناطق إذًا لا غيره، وإليه الإشارة بقوله

لموسى ﷺ: «مَـرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِـي» الحديث. فـحركـات هذا الموحـد من السـماء الدنيـا وإحساساته من سماء فوقها وعقـله فوق ذلك وهو يترقى من سماء العقل إلى منتهى معراج الخلائق ومملكة الفردانيـة إلى سبع طبقات، ثم بعد يستوى على عـرش الوحدانية ومنه يدبر الأمـر إلى طبـقـات سـماواته فـربما نظـر الناظر إليـه أن ذلك له تأويل كـقـوله: أنا الحق وسبحـانى، بل كقوله عليه الـصلاة والسلام: «**مرضت فلم تعـدنى وكنت سمعـه وبصره ولسانه**»، فأرى الآن إمساك عنان البيان فما أراك تطيق من هذا الفن أكثر من هذا المقدار.

مساعدة: لعلك لا تسمو إلى هذا المكان بهمتك، بل تقـصر دون ذروته همتك فخذ إليك كـلامًا أقـرب إلى فهـمك وأقرب لضـعفـك، واعلم أن معنى كـونه نور السمـاوات والأرض تعرفه بالنسبة إلى النور الظاهرى البصـرى، فإذا رأيت ألوان الربيع وخضرتها مثلاً فى ضياء النهـار فلست تشك فى أنك ترى الألوان، وربما ظننت أنك لست ترى مع الألوان غيرها فكأنـك تقول لست أرى مع الخضرة غيـرها، ولقد أصر على هذا أقوام فـزعموا أن النور لا مـعنى له وأنه ليس مع الألوان غـيـر الألوان، فأنكروا وجـود النور مع أنه أظهـر الأشياء وكيـف لا وبه تظهر الأشياء وهو الذى يبصر فى نفـسه ويبصر به غيره كـما سبق، لكن عند غروب الشمس وغيبة السراج ووقـوع الظل أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل وبين موضع الضياء فاعتـرفوا بأن النور معنى وراء الألوان يدرك مع الألوان حتى كأنه لشدة اتحاده بها لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى، وقـد تكون شدته سبب الخفاء، والشىء إذا جاوز حده انعكس على ضده فإذا عرفت هذا فاعلم أن أرباب البـصائر ما رأوا شيئًا إلا ورأوا الله معه، وربمـا زاد على هذا بعضهم فقـال: ما رأيت شيئًـا إلا رأيت الله قبله. لأن منهم من يرى الأشياء به، ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء وإلى الأول الإشارة بقوله: ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت : ٥٣]. وإلى الثـانى الإشـارة بقـوله: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالأول صاحب المشاهدة، والثانى صاحب الاستدلال بآياته، والأولى درجة الصديق، والثانية درجة العلماء الراسخين، وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين، فإذا عـرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شىء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شىء للبصيرة الـباطنة بالله فهو مع كل شىء لا يفارقه وبه يظهر كل شئ، ولكن بقى ههنا تفـاوت وهو أن النور الظاهر يتصـور أن يغيب بغـروب الشمس ويحجب حتى يظهر الظل.

أما النور الإلهى الذى به يظهر كل شىء لا يتصور غيبته بل يستحيل غروبه فيبقى مع الأشياء كلهـا دائمًا فانقطع طريق الاستدلال بالتفـرقة ولو يضطر غيبته لانهـدمت السموات والأرض ولأدرك به من التفـرقة ما يضطر مـعه إلى المعـرفة بما به ظهرت الأشـياء، لكن لما

تساوت الأشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة لواحدانية خالقها إذ كل شىء يسبح بحمده لا بعض الأشياء، وفى جميع الأوقات لا فى بعض الأوقات ارتفع التفريق وخفى الطريق إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا نقيض تتشابه الأحوال فى الشهادة له، فلا بد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه: فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم لإشراق نوره، وربما أيضًا لا يفهم هذا الكلام بعض القاصرين فيفهم من قولنا إن الله مع كل شىء كالنور مع الأشياء، إنه فى كل مكان تعالى وتقدس عن النسبة إلى مكان، بل الأبعد عن إثارة هذا الخيال أن نقول لك قبل كل شىء وأنه فوق كل شىء وأنه مظهر كل شئ، والمظهر لا يفارق المظهر فى معرفة صاحب البصيرة، فهذا الذى نعنى بقولنا إنه مع كل شئ، ثم لا يخفى عليك أيضًا أن المظهر قبل المظهر وفوقه مع أنه معه لكنه معه بوجه وقبله بوجه فلا تظن أنه متناقض واعتبر بالمحسوسات التى هى قدر درجتك فى العرفان، وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركة ظل اليد وقبلها أيضًا، ومن لم يتسع صدره لمعرفة هذا فليهجر هذا النمط من العلم فلكل علم رجال وكل ميسر لما خلق له.

الفصل الثانى
فى بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار

وبيان ذلك: يستدعى تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود، ولكنى أشير إليهما بالرمز والاختصار.

أحدهما: فى بيان سر التمثيل ومنهاجه ووجه ضبط أرواح المعانى بقوالب الأمثلة، ووجه كيفية المناسبة بينهما وكنه الموازنة بين عالم الشهادة التى منها يتخذ طينة الأمثال، وبين عالم الملكوت الذى منه تنزل أرواح المعانى.

والقطب الثانى: فى طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها، فإن هذا المثال مسوق لبيان ذلك، وقد قرأ ابن مسعود «**مَثَلُ نُوره فى قَلْبِ المُؤمنِ كمشْكاة فيْهَا**» [النور: ٣٥]. وقرأ أُبى بن كعب «**مَثَلُ نُورِ قَلْبِ مَنْ آمَنَ كَمشْكَاة فيهَا**».

القطب الأول فى بيان سر التمثيل ومنهاجه

اعلم أن العالم عالمان روحانى وجسمانى، وإن شئت قلت حسى وعقلى، وإن شئت قلت علوى وسفلى والكل متقارب، وإنما يختلف باختلاف العبارات، فإذا اعتبرتهما فى

أنفسهما قلت: جسمانى وروحانى، وإذا اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت: حسى وعقلى، وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت علوى وسفلى، وربما سميت أحدهما عالم الملك والشهادة، والآخر عالم الغيب والملكوت ومن ينظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما يتحير من كثرتها ويتخيل كثرة المعانى والذى تنكشف له الحقائق يجعل المعانى أصلاً والألفاظ تابعة وأمر الضعيف بالعكس منه إذ يطلب الحقائق من الألفاظ وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: ٢٢]. وإذا قد عرفت معنى العاملين، فاعلم أن العالم الملكوتى العلوى عالم غيب إذ هو غائب عن الأكثر، والعالم الحسى عالم الشهادة إذ يشهده الكافة، والعالم الحسى مرقاة إلى العالم العقلى، ولو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسدّ طريق الترقى إليه، ولو تعذر ذلك لتعذّر السفر إلى الحضرة الربوبية والقرب من الله فلن يقرب من الله أحد ما لم يطأ بحبوحة حظيرة القدس، والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذى نعنيه بعالم القدس، وإذا اعتبرت جملته بحيث لايخرج منه شىء ولا يدخل فيه ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس، وربما سمينا الروح البشرى الذى هو مجرى لوائح القدس الوادى المقدس. ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعانًا فى معانى القدس، ولكن لفظ الحظيرة محيط بجميع طبقاتها، فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات غير معقولات عند أرباب البصائر.

واشتغالى الآن بشرح كل لفظ مع ذكره يصدنى عن المقصد، فعليك بالتشمير لفهم الألفاظ فأرجع إلى الغرض فأقول: لما كان عالم الشهادة مرقى إلى عالم الملكوت كان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقى وقد يعبر عنه بالدين، وبمنازل الهدى فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما تصور الترقى من أحدهما إلى الآخر، فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت، فما من شىء فى هذا العالم إلا وهو مثال لشئ من ذلك العالم، وربما كان الشئ الواحد مثالاً لأشياء من عالم الملكوت. وربما كان للشئ الواحد من الملكوت، أمثلة كثيرة من عالم الشهادة، وإنما يكون مثالاً إذا ماثله نوعًا من المماثلة. وطابقه نوعًا من المطابقة، وإحصاء تلك الأمثلة يستدعى استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها، ولن تفى به القدرة البشرية، ولم تتسع لفهمه القوة البشرية، ولا تفى لشرحه الأعمار القصيرة، فغايتى أن أعرفك منها أنموذجًا لتستدل باليسير منها على الكثير وينفتح لك باب الاستبصار بهذا النمط من الأسرار. فأقول: إن كان من عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ولأجلها قد تسمى أربابًا فيكون الله رب الأرباب لذلك، ويكون لها مراتب فى نورانيتها

متفاوتة ، فبالحرى أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب، وسالك الطريق يترقى أولاً إلى ما درجته درجة الكوكب فيتضح له إشراق نوره، وينكشف له أن العالم الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره، ويتضح له من جماله وعلو درجته ما ينادى فيقول: هذا ربى، ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر رأى أفول الأول فى مضرب الهوى أى بالإضافة إلى ما فوقه أفولاً فقال: لا أحب الآفلين، فكذلك يترقى حتى ينتهى إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى قابلاً للمثال بنوع مناسبة له معه، والمناسبة مع ذى النقص نقص؟ وأقول أيضًا فمنه من يقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. ومعنى الذى إشارة مبهمة مناسبة لها إذ لو قال قائل ما مثال مفهوم الذى لم يتصور أن يجاب عنه فالمنزه عن كل مناسبة هو الله الحق، ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله ما نسبة الله نزل فى جوابه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. معناه التقدس عن النسبة، ولذلك لما قال فرعون لموسى: وما رب العالمين؟ كالطالب لماهيته لم يجبه إلا بأفعاله إذا كانت الأفعال أظهر عند السائل، فقال: رب السموات والأرض. فقال فرعون لمن حوله: ألا تسمعون كالمنكر عليه فى عدوله فى جوابه عن طلب الحقيقة، فقال موسى: ﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٦]. فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية وهو يجيب عن الأفعال بالأفعال، وقال فرعون: إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون، ولنرجع الآن إلى الأنموذج فنقول: عالم التعبير يعرفك مقدار ضرب المثال لأن الرؤيا جزء من النبوة. أما ترى أن الشمس فى الرؤيا تعبيرها السلطان لما بينهما من المشاركة والمماثلة فى معنى روحانى، هو الاستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار والأنوار على الجميع ، والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها، كما يفيض السلطان آثاره بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان، وأن من يرى أن فى يده خاتمًا يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فإنه يعبر له أنه يؤذن قبل الصبح فى رمضان، ومن رأى أنه يصب الزيت فى الزيتون تعبيره أن تحته جارية هى أُمه وهو لا يعرفها فاستقصاء أبواب التعبير فى أمثال هذا الجنس غير ممكن فلا يمكن الاشتغال بعدها، بل أقول: كما أن فى الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب، كذلك منها ما له أمثلة أُخرى إذا اعتبرت معها أوصاف أُخر سوى النورانية، فإن كان فى تلك الموجودات ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ومنه تتفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات فمثاله الطور، وإن كانت الموجودات التى تتلقى تلك النفائس بعضها أولى من بعض فمثاله الوادى، وإن كانت تلك

النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجرى من قلب إلى قلب، فهذه القلوب أيضًا أودية ومفتتح الوادى قلوب الأنبياء والأولياء والعلماء، ثم من بعدهم فإن كانت هذه الأودية دون الأول ومنها تغترف فبالحرى أن يكون الأول هو الوادى الأيمن لكثرة يمنه وعلو درجته، وإن كان الوادى الأول يتلقى من آخر درجات الوادى الأيمن فهو يغترف من شاطئ الوادى الأيمن دون لجته وميدانه، وإن كان روح النبى سراجًا منيرًا. وكان ذلك الروح مقتبسًا بواسطة وحى كما قال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فما منه الاقتباس مثاله النار، وإن كان المتلقون من الأنبياء بعضهم على محض التقليد لما يسمعه وبعضهم على حظ من البصيرة، فمثال المقلد الغير المستبصر الجذوة والقبس والشهاب وصاحب الذوق مشارك للنبى فى بعض الأحوال. ومثال تلك المشاركة الاصطلاء وإنما يصطلى بالنار من معه النار لا من سمع خبرها، وإن كان أول منزل الأنبياء الترقى إلى العالم المقدس عن كدورة الحس والخيال، فمثال، ذلك المنزل الوادى المقدس، وإن كان لا يمكن وطء ذلك المقدس إلا باطراح الكونين أعنى الدنيا والآخرة والتوجه إلى الواحد الحق، وكانت الدنيا والآخرة متقابلتين متحاذيتين وهما عارضان للجوهر النورانى البشرى يمكن اطراحها مرة والتلبس بهما أُخرى، فمثال إطراحهما عند الإحرام والتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين بل نترقى إلى الحضرة الربوبية مرة أُخرى، فنقول: وإن كان فى تلك الحضرة شىء بواسطته ننتقش العلوم المفصلة فى الجواهر القابلة فمثاله القلم. وإن كان فى تلك الجواهر القابلة للتلقى ما انتقش بالعلوم فمثاله اللوح والكتاب ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ [الطور: ٣]. وإن كان فوق الناقش للعلوم شىء مسخر له فمثاله اليد، وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله الصورة، وإن كان يوجد للصور الإنسية ترتيب منظوم على هذه الشاكلة فهى على صورة الرحمن، وفرق بين أن يقال على صورة الرحمن وبين أن يقال على صورة الله. إذ الرحمة الإلهية هى التى على صورة الحضرة الإلهية بهذه الصورة، ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما فى العالم حتى كأنه كل ما فى العالم أو هو نسخة العالم مختصرة. وصور آدم أعنى هذه الصورة مكتوبة بخط الله، فهو الخط الإلهى الذى ليس برقم حروف إذ يتنزه خطه عن أن يكون رقمًا وحروفًا، كما يتنزه كلامه عن أن يكون صوتًا وحروفًا، وقلمه عن أن يكون قصبًا وحديدًا، ويده عن أن تكون لحمًا وعظمًا. ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه، فلما كان هذا من آثار الرحمة كان على صورة الرحمن لا على صورة الله، فحضرة الإلهية غير حضرة الرحمن وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية، ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ

النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]. ولولا هذا المعنى لكن قوله: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن غير منظوم لفظًا، بل كان ينبغي أن يقول على صورته، واللفظ الوارد في الصحيح على صورة الرحمن. ولأن تمييز حضرة الملك عن حضرة الربوبية يستدعى شرحًا طويلاً، فلنتجاوز ويكفيك من الأنموذج هذا القدر فإنه بحر لا ساحل له فإن وجدت فى نفسك نفورًا عن هذه الأمثال فستأنس بقوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾ [الرعد: ١٧]. الآية. فإنه قد ورد فى التفسير أن الماء هو المعرفة والأودية القلوب.

خاتمة واعتذار: لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة منى فى رفع الظاهر واعتقادًا فى إبطالها حتى أقول مثلاً: لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله: ﴿**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**﴾ [طه: ١٢]. حاشا لله فإن إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وجهلوا جهلاً بالموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه، كما أن أبطال الأسرار مذهب الحشوية فالذى يجرد الظاهر حشوى، والذى يجرد الباطن باطنى والذى يجمع بينهما كامل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع**». وربما نقل هذا عن على موقفًا عليه، بل أقول موسى فهم من الأمر بخلع النعلين اطرح الكونين فامتثل الأمر ظاهرًا بخلع نعليه وباطنًا بخلع العالمين، فهذا هو الاعتبار أى العبور من شيء إلى غيره ومن ظاهر إلى سر، وفرق بين من يسمع قول رسول الله ﷺ: «**لا تَدْخُلُ المَلائكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ أو صُورَةٌ**»، فيقتنى الكلب فى البيت ويقول ليس الظاهر مرادًا بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب، لأنه يمنع المعرفة التى هى من أنوار الملائكة إذ الغضب غول العقل وبين من يمتثل الأمر بالظاهر، ثم يقول ليس الكلب بصورته بل بمعناه وهو السبعة والضراوة، وإذا كان حفظ البيت الذى هو مقر الشخص والبدن واجبًا عليه أن يحفظ عن صورة الكلبية، فلأن يجب حفظ بيت القلب وهو مقر الجوهر الحقيقى الخاص عن سر الكلبية كان أولى، فإن من يجمع بين الظاهر والباطن جميعًا فهذا هو الكامل، وهو المعنى بقولهم الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، وكذلك ترى الكامل لا يسمح لنفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة.

فهذه مغلطة، منها ما وقع لبعض السالكين فى إباحة طى بساط الأحكام ظاهرًا حتى ربما ترك أحدهم الصلاة وزعم أنه دائم الصلاة بسره، وهذا أشد مغلطة الحمقاء من الإباحية الذين تأخذهم ترهات كقول بعضهم: إن الله غنى عن عملنا. وقول بعضهم: إن الباطن مشحون بالخبائث ليس يمكن تزكيته منها ولا مطمع فى استئصال الغضب والشهوة بظنه أنه مأمور باستئصالها، فهذه حماقات. وأما ما ذكرناه فهو ككبوة جواد وهفوة سالك صده الشيطان فدلاه بحبال الغرور وأرجع إلى حديث النعلين فأقول: ظاهر خلع النعلين منبه على

ترك الكونين، فالمثال في الظاهر حق وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة، ولكل حق حقيقة، وأهل هذه الرتبة هم الذين بلغوا درجة الزجاجة، كما سيأتي معنى الزجاجة لأن الخيال الذي من طينته يتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار ويحول بينك وبين الأنوار، ولكن إذا صفا صار كالزجاج الصافي، وصار غير حائل عن الأنوار بل صار مع ذلك مؤديًا للأنوار، بل صار مع ذلك حافظًا للأنوار عن الانطفاء بعواصف الرياح، فستأتيك قصة الزجاجة. فاعلم أن العالم الكثيف الخيالي السفلي صار في حق الأنبياء عليهم السلام زجاجة، ومشكاة للأنوار، ومصفاة للأسرار، ومرقاة إلى العالم الأعلى. وبهذا يعرف أن المثال الظاهر حق ووراء هذا سر. وقس عليه الضوء والنهار وغيره.

دقيقة: إذا قال عليه الصلاة والسلام: «**رأيت عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة حبوًا**»، فلا تظن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك بل رآه في يقظته كما يراه النائم في نومه، وإن كان عبد الرحمن بن عوف نائمًا في البيت بشخصه، فإن النوم إنما أثر في أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلهي فإن الحواس شاغلة وجاذبة إلى عالم الحس وصارفة وجهه عن عالم الغيب والملكوت، وبعض الأنوار النبوية قد تصفى وتستولي بحيث لا تجذبه الحواس إلى عالمها، ولا تشغله فيشاهد في اليقظة ما يشاهده غيره في المنام لكنه إذا كان في غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة، بل عبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الأعلى الذي يعبر عنه بالجنة، والغنى والثروة جاذبة إلى الحياة الحاضرة وهي العالم الأسفل، فإذا كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى مقارنة من الجاذب للآخر صد عن السير إلى الجنة فإن كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسرًا أو بطئًا في سيره فيكون مثاله من عالم الشهادة الحبو، فكذلك تنجلي الأسرار من وراء زجاجات الخيال وذلك لا يقصر في حكمه على عبد الرحمن وإن كان إبصاره مقصورًا عليه، بل يحكم به عن كل من قويت بصيرته واستحكم إيمانه وكثرت ثروته كثرة تزاحم الإيمان، لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان، فهذا يعرفك كيفية إبصار الأنبياء الصور، وكيفية مشاهدتهم المعاني من وراء الصور، والأغلب أن يكون المعنى سابقًا إلى المشاهدة الباطنية، ثم يشرف منه على الروح الخيالي فينطبع بصورة موازية للمعنى محاكية له، وهذا الحظ من الوحي في اليقظة يحتاج إلى التأويل كما أنه في النوم يفتقر إلى التعبير، والواقع منه في النوم نسبته إلى الخواص النبوية نسبه الواحد إلى ستة وأربعين، والواقع منه في اليقظة نسبته أعظم من ذلك وأظن أن نسبتة نسبه الواحد إلى الثلاثة، فإن الذي انكشف لنا أن الخواص النبوية تنحصر شعبها في ثلاثة أجناس وهذا واحد من تلك الأجناس الثلاثة.

القطب الثانى: فى بيان مـراتب الأرواح البشرية الـنورانية إذ بمعرفـتها تعـرف أمثلة القرآن:

ـ **فالأول منها:** الروح الحساس وهو الذى يتلقى مـا توررده الحواس إذ كان أصل الروح الحيوانى وأوله وبه يصير الحيوان حيوانًا وهو موجود للصبى الرضيع.

الثانى: الروح الخيـالى وهو الذى يكتب ما أوردته الحـواس ويحفظه مـخزونًا عنده ليعرضه على الروح الـعقلى فوقه عند الحاجة إليه. وهذا لا يوجـد للصبى الرضيع فى بدء نشوئه ولذلك يولع بالشئ ليأخـذه، فإذا غيب عنه ينساه ولا تنازعه نفســه إليه إلى أن يكبر قليلاً بحـيث إذا غيب عنه بكى وطلب ذلك لبـقاء صورته محـفوظة فى خيـاله، وهذا قد يوجد لبعض الحـيوانات دون بعض، ولايوجد للفراش المتهـافت على النار لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النار فيظن أن السراج كوة مفتوحـة إلى موضع الضياء فيلقى نفسه عليه فيتأذى به، لكنه إذا جاوزه وحصل فى الظلـمة عاوده مرة أخرى بعد مـرة، ولو كان الروح الحافظ المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم لما عاوده بعـد أن تضرر به مرة. فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة فإذا رأى الخشبة بعد ذلك هرب.

الثالث: الروح العقلـى الذى يدرك المعانى الخارجـة عن الحس والخيـال وهو الجوهر الإنسى الخاص ولا يوجـد للبهائم ولا الصبـيان، ومدركـاته المعارف الضرورية الكلية كـما ذكرناه عند ترجيح نور العقل على نور العين.

الرابع : الروح الفكرى وهو الذى يأخذ العلـوم العقلية المحضـة فيوقع بينها تأليـفات وازدواجات ويستـنتج منها معارف نفـسية ثم استـفاد نتيجتـين مثلاً ألف بينهمـا مرة أُخرى واستفاد نتيجة مرة أُخرى، ولا تزال تتزايد كذلك إلى غير نهاية.

الخامس: الروح القدسى النبوى الذى به يختص الأنبياء وبعض الأولياء، وفيه تنجلى لوائح الغـيب وأحكام الآخـرة وجـملة من معـارف ملكوت السـمـوات والأرض، بل من المعـارف الربانية التى تقـتصـر دونها الروح العـقلى والفكرى وإليه الإشـارة بقوله تعـالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢]. ولا يبعد أيها المعتكف فى عالم العقل أن يكون وراء العقل طوراً آخر يظهر فيه ما لا يظهر فى العقل كما لم يبعد كون العقل طوراً وراء التمييـز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحســاس والتمييز. فلا تجـعل أقصى الكمال وقفًا على نفـسك، وإن أردت مثالاً مما تشاهده من جملة خواص بعض البشر فانظر إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع إدراك ويحرم منه بعضهم حتى لاتتميز عندهم الألحان الموزونة من المزحفة. وانظر

كيف عظمت قوة الذوق فى آخرين حتى استخرجوا منها الموسيقى والأغانى وصنوف الدستانات التى منها المحزن، ومنها المطرب، ومنها المنوم، ومنها المبكى، ومنها المجنن، ومنها القاتل، ومنها الموجب للغشى وإنما تقوى هذه الآثار فيمن له أصل الذوق، وأما العاطل عن خاصية الذوق فإنه يشارك فى سماع الصوت وتضعف فيه هذه الآثار وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشى ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه.

فهذا مثال فى أمر خسيس لأنه قريب إلى فهمك فقس به الذوق الخاص النبوى، واجتهد فى أن تصير من أهل الذوق بشئ من تلك الروح فإن للأولياء منه حظًّا وافرًا، فإن لم تقدر فاجتهد أن تصير بالأقيسة التى ذكرناها والتشبيهات التى رمزنا إليها من أهل العلم بها فإن لم تقدر فلا أقل من أن تكون من أهل الإيمان بها ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]. والعلم فوق الإيمان، والذوق فوق العلم، والذوق وجدان والعلم قياس، والإيمان قبول مجرد بالتقليد وحسن الظن بأهل الوجدان أو بأهل العرفان، وإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة، فاعلم أنها بجملتها أنوار إذ بها تظهر أصناف الموجودات والحسى والخيالى منها وإن كان يشارك البهائم فى جنسها، لكن الذى للإنسان منها نمط آخر أشرف وأعلى وخلقًا فى الإنسان لغرض آخر أجلى وأسنى. وأما الحيوانات فلم يخلقا لها ليكونا آلتها فى طلب غذائها وتسخيرها للأدميين. وإنما خلقا للأدمى ليكونا شبكة له يقتص بهما فى جهة العالم الأسفل مبادئ المعارف الدينية الشريفة إذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصًا معينًا اقتبس من عقله معنى عامًا مطلقًا كما ذكرنا فى مثال عبد الرحمن بن عوف، فإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فلنرجع إلى عرض الأمثلة.

بيان أمثلة هذه الآية: اعلم أن القول فى موازية هذه الأرواح الخمسة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت يمكن تطويله، لكنى أوجز وأقتصر على التنبيه على طريقه، فأقول: أما الروح الحاس فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من ثقب عدة كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرهما فأوفق مثال له فى عالم الشهادة المشكاة. وأما الروح الخيالى فتجد له خواص ثلاثة:

إحداها: أنه من طينة العالم السفلى الكثيف لأن الشئ المتخيل ذو مقدار وشكل وجهات محصورة مخصوصة وهو على نسبة من المتخيل من قرب أو من بعد، ومن شأن الكثيف الموصوف بأوصاف الأجسام أن يحجب عن الأنوار العقلية المحضة التى تتنزه عن الوصف بالجهات والمقادير والقرب والبعد.

الثانية: أن هذا الخيال الكثيف إذا صفى ورقق وهذب وضبط صار موازيًا للمعانى العقلية محاذيًا لها وغير حائل عن إشراق نور منها.

الثالثة: أن الخيال فى بداية أمره محتاج إليه جدًّا لتنضبط له المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشارًا يخرج عن الضبط إذ تجمع المثالات الخيالية للمعارف العقلية.

وهذه الخواص الثلاثة لا تجدها فى عالم الشهادة بالإضافة إلى الأنوار المبصرة إلا الزجاجة فإنها فى الأصل من جوهر كثيف لكن صفى ورقق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة فهى أولى مثال به.

وأما الثالث: وهو الروح العقلى الذى فيه إدراك المعانى الشريفة الإلهية فلا يخفى عليك وجه تمثيلها وقد عرفت هذا مما سبق من بيان معنى كون الأنبياء سراجًا منيرًا.

وأما الرابع: وهو الروح الفكرى فمن خاصيته أن يبتدئ من أصل واحد ثم يتشعب شعبتين ثم كل شعبة شعبتين، وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية، ثم يفضى بالآخر إلى نتائج تعود فتصير بذورًا لأمثالها إذ يمكن أيضًا تلقيح بعضها بالبعض فيكون مثاله من هذا العالم الشجرة، وإذا كانت ثمراتها مادة لتضاعف المعارف وثباتها وبقائها، فبالحرى أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها من جملة سائر الأشجار إلا بالزيتونة خاصة لأن لبّ ثمرتها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح ويختص من بين سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراف، وإذا كانت الشجرة التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالتى لا تتناهى ثمرتها إلى حد محدود أولى أن تسمى -شجرة مباركة- وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد فأولى أن تكون شرقية ولا غربية.

وأما الخامس: وهو الروح القدسى النبوى والمنسوب إلى الأولياء إذا كان فى غاية الإشراق والصفاء وكانت الرّوح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر فى أنواع المعارف، وبعضها يكون فى شدة الصفاء كأنه تنبيه من نفسه بغير مدد من خارج، فبالحرى أن يعبر عن الصافى القوى الاستعداد بأنه يكاد زيته يضئ ولو لم تمسه نار إذ فى الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغنى عن مدد الأنبياء. وفى الأنبياء من يكاد يستغنى عن مدد الملائكة فهذا المثال موافق لهذا القسم وإذا كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الأول وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالى إذ لا يتصور الخيالى إلا موضوعًا بعده والفكرى والعقلى يكونان بعدها، فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة فيكون المصباح فى زجاجة والزجاجة فى مشكاة، وإذا كانت هذه كلها أنوارًا بعضها فوق بعض فبالحرى أن تكون نورًا على نور فافهم والله الموفق.

خاتمة: هذا مثال إنما يصلح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار، فإن النور يراد للهداية فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة لأن الظلمة لا تهدى إلى باطل كما تهدى إلى حق، وعقول الكفار انتكست وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الضلال فى حقهم، فمثالهم كرجل فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، والبحر اللجى هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والحوادث الرديئة والمكدرات المعمية، والموج الأول: موج الشهوات الباعثة إلى الصفات البهيمية والاشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى أنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، أن يكون هذا الموج مظلمًا لأن حب الشئ يعمى ويصم. والموج الثانى: موج الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر وبالحرى أن يكون مظلمًا لأن الغضب غول العقل وبالحرى أن يكون هو الموج الأعلى لأن الغضب فى الأكثر مستول على الشهوات، حتى إذا ماج أذهل عن الشهوات وأغفل عن اللذات فإن الشهوة لا تقاوم الغضب الهائج أصلاً، وأما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة والظنون الكاذبة والخيالات الفاسدة التى صارت حجبًا بين الكافر وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل فإن خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس، وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحرى أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض، وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلاً عن البعيدة فلذلك تحجب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبى ﷺ مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل، فبالحرى أن يعبر عنه بأنه إذا أخرج يده لم يكد يراها، وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق كما سبق، فبالحرى أن يعتقد كل موحد أن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، ويكفيك هذا القدر من أسرار هذه الآية فاقنع.

الفصل الثالث
فى معنى قوله ﷺ: «إن لله سبعين حجابًا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره»

فى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها سبعين ألفًا. فأقول: إن الله تعالى متجلٍ فى ذاته بذاته لذاته ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة، وإن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام منهم: من يحتجب بمجرد الظلمة، ومنهم: من يحتجب بمجرد النور المحض، ومنهم: من يحتجب بنور مقرون بظلمة. وأصناف هذه الأقسام كثيرة تتحقق كثرتها، ويمكننى أن أتكلف حصرها لكننى لا أثق بما يلوح من تحديد وحصر إذ لا يدرى أهو المراد فى الحديث أم لا، أما الحصر إلى سبعمائة أو سبعين ألفًا فذلك لا تستقل به إلا القوة النبوية مع أن ظاهر ظنى أن هذه الأعداد مذكورة لا للتحديد، وقد تجرى العادة بذكر أعداد ولا يراد بها الحصر، بل التكثير والله أعلم بحقيقة ذلك فهو خارج عن الوسع، وإنما الذى يمكننى الآن أن أعرفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم فأقول:

القسم الأول: هم المحجوبون بمحض الظلمة وهم الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلاً وهم أصناف.

الصنف الأول: تشوق إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله الطبع والطبع صفة مركوزة فى الأجسام حالة فيها، وهى مظلمة إذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا تصور لها وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضًا.

الصنف الثانى: هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يتفرغوا لطلب السبب بل عاشوا عيشة البهائم فكان حجابهم أنفسهم المركوزة وشهواتهم المظلمة فلا ظلمة أشد من الهوى والنفس. ولذلك قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال النبى ﷺ: «**الهوَى أَبْغَضُ إله عُبِدَ إلى الله**»، وهؤلاء ينقسمون فرقًا: ففرقة زعمت أن غاوة المطلب من الدنيا هى قضاء الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذات البهيمية من منكح ومطعم ومشرب وملبس، فهؤلاء عبيد اللذة يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادة رضوا لأنفسهم بأن يكونوا بمنزلة البهائم بل كيلا ينظر الناس إليهم بعين الحقارة، وهؤلاء الأصناف لا يحصون وكلهم محجوبون عن الله بمحض الظلمة وهى نفوسهم المظلمة، ولا معنى لذكر آحاد الفرق بعد وقوع التنبيه على الأجناس، ويدخل فى جملة هؤلاء جماعة يقولون

بلسانهم لا إله إلا الله ولكن ربما حمله على ذلك خوف، أو استظهار بالمسلمين أو تجمل بهم، أو استمداد من مالهم، أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الآباء، وهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم من الظلمات إلى النور بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات فأما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئاته وسرته حسناته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية.

القسم الثاني: طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف: صنف منشأ ظلمتهم من الحس، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة.

الصنف الأول: المحجوبون بالظلمة الحسية وهم طوائف لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه وعن التأله والتشوق إلى معرفة ربه، وأول درجاتهم عبدة الأوثان وآخرهم الثنوية وبينهما درجات.

الطائفة الأولى: عبدة الأوثان علموا في الجملة أن لهم ربًّا يلزمهم إيثاره على نفوسهم المظلمة واعتقدوا أن ربهم أعز من كل شيء وأنفس من كل نفيس، ولكن حجبتهم ظلمة الحس عن أن يتجاوزوا المحسوس من أنفس الجوهر كالذهب والفضة والياقوت أشخاصًا مصورة بأحسن الصور واتخذوها آلهة، فهؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال من صفات الله وأنواره، ولكنهم ألصقوها بالأجسام المحسوسة وصدهم عن ذلك النور ظلمة الحس، فإن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحاني كما سبق.

الطائفة الثانية: جماعة من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولا شريعة يعتقدون أن لهم ربًّا وأنه أجمل الأشياء وإذا رأوا إنسانًا في غاية الجمال أو شجرًا أو فرسًا أو غير ذلك سجدوا له وقالوا إنه ربنا، وهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس وهم أدخل في ملاحظة النور من عبدة الوثان لأنهم يعبدون الجمال المطلق دون الشخص الخاص ولا يخصصونه بشخص دون شخص ثم يعبدون الجمال المطبوع لا المصنوع من جهتهم وبأيديهم.

الطائفة الثالثة: قالوا ينبغي أن يكون ربنا نورانيًا في ذاته، بهيًّا في صورته ذا سلطان في نفسه، مهيبًا في حضرته لا يطاق القرب منه، ولكن ينبغي أن يكون محسوسًا إذ لا معنى لغير المحسوس عندهم، ثم وجدوا النار بهذه الصفة فعبدوها واتخذوها ربًّا فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء، وكل ذلك من أنوار الله تعالى.

الطائفة الرابعة: زعموا أن النار نستولى نحن عليها بالاشتعال والإطفاء فهي تحت تصرفنا فلا تصلح للإلهية بل مايكون بتلك الصفة أعني السلطنة والبهاء، ثم نكون نحن

تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفًا بالعلو والارتفاع، ثم كان المشهور فيما بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها، فمنهم من عبد الشعرى، ومنهم من عبد المشترى إلى غير ذلك من الكواكب بحسب ما اعتقدوه فى النجوم من كثرة التأثيرات، فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراق والاستيلاء وهى أنوار الله تعالى.

الطائفة الخامسة: ساعدت هؤلاء فى المأخذ، ولكن قالت لا ينبغى أن يكون ربّنا موسومًا بالصغر والكبر بالإضافة إلى الجواهر النورانية. بل ينبغى أن يكون أكبرها فعبدوا الشمس إذ قالوا هى أكبر. فهؤلاء محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مقرونًا بظلمة الحواس.

الطائفة السادسة: ترقوا من هؤلاء فقالوا النور كله لا تنفرد به الشمس بل لغيرها أيضًا أنوار، ولا ينبغى أن يكون للرب شريك فى نورانيته فعبدوا النور المطلق الجامع لجميع الأنوار. وزعموا أنه رب العالمين والخيرات كلها منسوبه إليه، ثم رأوا فى العالم شرورًا فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيهًا له عن الشر فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم إلى النور والظلمة وربما سموها: (يزدان واهرمن) وهم الثنوية فيكفيك هذا القدر تنبيهًا على هذا الصنف فهم أكثر من ذلك.

الصنف الثانى: المحجوبون ببعض الأنوار مقرونًا بظلمة الخيال وهم الذين جاوزوا الحس وأثبتوا وراء المحسوسات أمرًا، لكنهم لم يمكنهم مجاوزة الخيال فعبدوا موجودًا قاعدًا على العرش وأخسهم رتبة المجسمة، ثم أصناف الكرامية بأجمعهم، ولا يمكننى شرح مقالاتهم ومذاهبهم فلا فائدة للتكثير، ولكن أرفعهم درجة من نفى الجسمية وجميع عوارضها إلا الجهة المخصوصة بجهة فوق لأن الذى لا ينسب إلى الجهة ولا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لم يكن عندهم موجودًا، إذ لم يكن متخيلاً ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوز النسبة إلى الجهات والحيزة.

الصنف الثالث: المحجوبون بالأنوار الإلهية مقرونة بمقاسات عقلية فاسدة مظلمة فعبدوا إلهًا سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا مريدًا حيًّا منزهًا عن الجهات، لكنهم فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم، وربما صرح بعضهم، فقال كلامه حروف وأصوات ككلامنا، وربما ترقى بعضهم فقال: لا بل هو كحديث نفسنا ولا حرف ولاصوت، وكذلك إذا طولبوا بحقيقة السمع والبصر والحياة رجعوا إلى التشبيه من حيث المعنى وإن أنكروها باللفظ إذ لم يدركوا أصلاً معانى هذه الإطلاقات فى حق الله تعالى، ولذلك قالوا فى إرادته إنها حادثة مثل إرادتنا وإنه طلب وقصد مثل قصدنا، وهذه مذاهب مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها. وهؤلاء محجوبون بجملة من أنوار مع ظلمة المقايسات العقلية الفاسدة، فهؤلاء كلهم أصناف القسم الثانى الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة.

القسم الثالث: هم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف ولا يمكن إحصاؤهم فأشير إلى ثلاثة أصناف منهم:

الصنف الأول: عرفوا معنى الصفات تحقيقًا وأدركوا أن إطلاق اسم الكلام والإرادة والقدرة والعلم وغيرها على صفاته ليس مثل إطلاقه على البشر، فتحاشوا عن تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات كما عرف موسى فى جواب قول فرعون: وما رب العالمين؟ فقالوا: إن الرب المقدس عن معانى هذه الصفات محرك السموات ومدبرها.

الصنف الثانى: ترقوا عن هؤلاء من حيث ظهر لهم أن فى السموات كثرة، وأن محرك كل سماء خاصة موجود آخر يسمى ملكًا فيهم كثرة، وإنما نسبهم إلى الأنوار الإلهية نسبة الكواكب فى الأنوار المحسوسة، ثم لاح لهم أن هذه السموات فى ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته فى اليوم والليلة مرة، فالرب هو المحرك للجرم الأقصى المحتوى على الأفلاك كلها إذ الكثرة منفية عنه.

الصنف الثالث: ترقوا عن هؤلاء وقالوا: إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغى أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة له وطاعة من عبد من عبيده يسمى ملكًا نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر إلى الأنوار المحسوسة، فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك، ويكون الرب تعالى وجد محركًا للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة، ثم فى تفهيم ذلك الأمر وماهيته غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ولا يحتمله هذا الكتاب، فهؤلاء أصناف كلهم محجوبون بالأنوار المحضة، وإنما الواصلون صنف رابع تجلى لهم أيضًا أن هذا المطاع موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر ليس يحتمل هذا الكتاب كشفه، وأن نسبة الجمر إلى جوهر النار الصرف فتوجهوا من الذى يحرك السموات ومن الذى أمر بتحريكها، فوصلوا إلى موجود، منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم إذ وجدوه منزهًا ومقدسًا عن جميع ما وصفناه من قبل، ثم هؤلاء انقسموا:

فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره وانمحق وتلاشى ولكن بقى هو ملاحظًا للجمال والقدس وملاحظًا ذاته فى جماله الذى ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية، فانمحقت فيه المبصرات دون المبصر، وجاوز هؤلاء طائفة منهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه الأعلى وغشيهم سلطان الجلال وانمحقوا وتلاشوا فى ذاتهم، ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم، ولم يبقَ إلا الواحد الحق وصار معنى قوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. لهم ذوقًا وحالاً، وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل الأول وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه فهذه نهاية الواصلين.

منهم من لم يتدرج فى الترقى والعروج عن التفصيل الذى ذكرناه، ولم يطل عليه العروج فسبقوا من أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه

فغلب عليهم أولاً ما غلب على الآخرين آخراً، وهجم عليهم التجلي دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسي أو بصيرة عقلية، ويشبه أن يكون الأول طريق الخليل، والثاني طريق الحبيب صلوات الله وسلامه عليهما، والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما.

فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ولا يبعد أن يبلغ عددهم إذا فصلت المقامات وتتبع حجب السالكين سبعين ألفًا، ولكن إذا فتشت لا تجد واحدًا منهم خارجًا عن الأقسام التي ذكرناها، فإنهم إما يحتجون بصفاتهم البشرية أو بالحس أو بالخيال وبمقايسة العقل أو بالنور المحض كما سبق.

فهذا ما حضرني في جواب هذه الأسئلة مع أن السؤال صادفني ، والفكر منقسم، والخاطر متشعب، والهم إلى غير ذلك الفن منصرف، ومقترحي عليه أن تسأل لي العفو عما طغى به القلم أو زلت به القدم. فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطيرة، واستكشاف الأنوار العلوية من وراء الحجب غير يسير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.